الحوار المفقود بين الذهنية البدوية والمجاملة الاجتماعية و خطاب اللون الواحد

(قراءة سوسيولوجية في الواقع الليبي)

د .ضو خليفة الترهوني
أستاذ علم الاجتماع المشارك
كلية الآداب/ جامعة طرابلس

مقدمة:

لا ريب أن حضرية وتحديث وتقدم المجتمعات والشعوب هي رهينة الانتشار الواسع للحوارات الاجتماعية والسياسية والثقافية السليمة بين الأفراد على المستويين :الرسمي والشعبي. فضلا عن أن سيادة هذه الحوارات المتحضرة تتشكل في الغالب مند نعومة أظافر الأفراد انطلاقاً من الخطوات الأولى في الحياة الاجتماعية من خلال الأسرة وأدوارها المهمة في التنشئة والرعاية والتكوين الاجتماعي والثقافي، وفي ضوء مكونات وعناصر الثقافة السائدة من جانب، وبتوجيه من الأنظمة القيمية والمعيارية التي يباركها المجتمع المعين من جانب أخر.

ومن المهم القول، أن حضارات الشعوب الراقية وعبر تاريخها الطويل وما تحمله من تأثيرات عميقة طالت العالم في كل حدب وصوب هي رهينة أساسا لتفاعلات ثقافية وفكرية ومعرفية وعلمية تشكلت عبر الوقت بفعل الحوارات الواعية والملتزمة والمنفتحة بين أبنائها .ومن ثم صار الحوار الحضاري والملتزم هو القاعدة أو المنصة الضرورية للانطلاق الحضاري والثقافي والتحديثي في عالم اليوم.

ومن المهم القول أيضاً، أن القفزات النوعية، والتبدلات الحضارية العظيمة والغير مسبوقة والتي هزت العالم هزا، وقلبت الكون قلبا هي نتاج صريح وواضح لجهود شعوب اختارت الحوار العلمي والسياسي والاجتماعي والثقافي– كوسيلة أو أسلوب_ وحيد وضروري لإحداث التغيير والتحديث والتنمية وما الابتكارات والاكتشافات والاختراعات التكنولوجية والمعرفية ببعيد. بيّد أن شعوب أخرى كثيرة وعديدة في العالم اختارت رغم تاريخها العريق خطاب التعصب والعصبية والغلبة ورفض الأخر أسلوبا وطريقا ونمطاً للحياة على المستويين الاجتماعي والرسمي، فضلا عن أن هذه الشعوب صارت فريسة لخطاب اللون الواحد وما ينطوي عليه من استبداد وقهر وإلغاء للآخر، وصارت من جانب آخر الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية لهذه الشعوب مسرحاً رحباً للشعارات والخطابات وتمجيد الماضي، وكراهية الآخر، والتعصب للرأي والفكرة . ونبذ الحوار بشكل ساهم ولا زال في تعثر وتقهقر وتراجع هذه الشعوب عن مشروعات النهضة والنهوض، وصارت هذه الشعوب وفقا لذلك، شعوبا متخلفة ومغتربة ومأزومة وبائسة في عالم تتحقق فيه الأهداف والغايات الغالية والثمينة بفعل الحوار وحده وبه ومن خلاله.

ومن الأهمية القول أن المجتمعات العربية كانت ولا زالت فريسة وضحية هذا الواقع المغترب والمتخلف والبائس، حتى صارت حياة هذه الشعوب وفقا لذلك صورة من صور القهر والاستبداد والعبث والضياع الاغتراب، فضلا

عن غياب الدور والأهمية والقيمة والمعاني في واقع أقل ما يقال حوله أنه واقع موبوء بالأمراض الاجتماعية والاختلافات والاضطرابات الاقتصادية والهيكلية، والأزمات السياسية والفكرية والقيمية.

وبين هذا وذاك، صارت حياة المواطن العربي تتماشى وتتشابه وبكل وضوح مع ظروف وأحوال اقل ما يمكن قوله حولها أنها حياة خارج العصر أو خارج التاريخ الإنساني، وربما يمكن القول أنها عصور الظلام بعينها.

إن المتتبع للواقع الليبي وهو واقع لا يختلف كثيرا عن الواقع العربي يلاحظ كيف آلت إليه الأوضاع والأحوال، وعلى كل المستويات الاجتماعية والسياسية والفكرية والاقتصادية والقيمية والأمنية والخدمية، وهي أحوال وأوضاع وظروف ربما تعبر تعبيراً دقيقاً عن حالة تخلف وفشل وسقوط وتشرذم وتشظي لم يسبقها سابق، ولم تقع مثلها أحداث ووقائع على الأقل في العصر الحديث .لقد تشعبت في هذا البلد التحديات، واختلطت في هذا المجتمع الأحداث، وغابت في هذا الواقع القيم والمعايير، فضلا عن الحوار والتفاوض والتعايش والانسجام والتالف الاجتماعي والسياسي إلى المستوى الذي اختلط فيه الصواب مع الخطأ والعيب مع الفضيلة والقاعدة مع الشواذ، والانحراف مع النظام، والنجاح مع الفشل، والحوار مع التعصب والعصبية.

ومهما يكن الأمر، ولأهداف وغايات تتعلق بهده الورقة البحثية صار الحوار كنشاط عقلي لفظي ويتاح في ضوئه تبادل الآراء والأفكار والمعلومات بين الأطراف الاجتماعية المختلفة مسألة مفقودة تماما في الواقع الليبي الراهن الأمر الذي اختفت بسببه كل عمليات الاتفاق والانسجام والتآلف والوحدة والتماسك الاجتماعي في هذا البلد المأزوم. ومن ثم، صار واقع الحوار المفقود والمأزوم – العقبة الرئيسية – أمام تعزيز التفاهم بين مكونات المجتمع المختلفة، بعد أن فتح الباب واسعا أمام انتشار وسيادة خطابات التعصب والخصومة والتنازع.

إن الحوار المفقود والمشوه الذي يعاني منه الواقع الاجتماعي والسياسي الليبي اليوم هو نقيض صارخ وصريح لتلك الحوارات الواعية والملتزمة والحضارية التي تعكس تهيؤ الأفراد النفسي والذهني والذهاب للأخر ومحاورته مع الاستعداد لتقديم تنازلات ضرورية من اجل استمرار التفاعل والتواصل الاجتماعي، ومن اجل الحياة، والمصير الواحد دون إحساس بدونية أو انتقاص مع التخلي عن كبرياء الغلبة والقوة والظلم والاستبداد، وفرض خطاب اللون الواحد بعيدا عن توجيهات الذهنية البدوية التي يعاني منها الواقع العربي في المجمل تلك العقلية أو نمط التفكير الذي ينطوي على أنشطة ذهنية تدور أساسا حول – التركيب الاجتماعي البدوي والحياة الاجتماعية البدوية التي تمتزج فيها الذهنية البدوية بروح العصيبة والغلبة من جهة، ولغة وخطاب القوة وسيطرة قيمة الانتصار للقرابة والعشيرة والعائلة والقبيلة من جهة أخرى . وبتوظيف نظام ذهني وثقافي ورمزي وقيمي يرسخ ويكرس معاني ودلالات الفكر البدوي الذي ينبذ الحوار من جهة ثالثة.

ومن بين التحديات الأخرى التي يعاني منها نظام الحوار في الواقع الليبي الراهن تحدي اختلاط وامتزاج نظام الحوار بأساليب المجاملة والمسايرة الاجتماعية تلك العمليات النفسية والاجتماعية التي تنعكس في أنماط سلوكية تنشد إرضاء الأخر كطرف تفاعل بشكل ظاهري وسطحي وغير حقيقي، وهي أساليب تفاعلية تسيطر تماماً على التفاعلات الاجتماعية والمناخ الفكري العام في المجتمع . غير أن – مسألة أخرى تظل تحمل تأثيرا قوياً في توجيه الحوار وهي مسألة تتداخل وتمتزج بشدة وقوة مع أساليب المجاملة والمسايرة الاجتماعية ألا وهي سلوكيات الاستغابة التي تجعل من الحوار أمرا مشوهاً ومبتوراً وعدائيا في المجمل، والاستغابة هي سلوك اجتماعي ذو معنى يوجه للأخر خلال المواقف والتفاعلات الاجتماعية، ويستهدف هذا السلوك أساسا اغتياب الأخر والسخرية

منه وأشاعه مساوئ ونقائص غير حقيقية حوله ، وتنطوي السخرية على روح عدائية أو كراهية أو حقد اتجاه الأخر للنيل من سمعته والاستخفاف به في وقت ينتشر منه وبقوة مشروع – خطاب اللون الواحد – الذي رسخه نظام السلطة السائدة .ذلك الخطاب الذي ينطوي أساسا على رسالة سياسية و فكرية وعقائدية – ايديولوجية تتركب من شعارات وأفكار وغايات تسوقّ لصورة واحدة وحيدة، وفرداً واحداً، وفكراً واحداً، وتسعى إلى تجميل وترويج – وجه النظام السلطوي وحده – فضلا عن إعادة إنتاج أهدافه وغاياته وفلسفته من خلال ادوار أجهزة النظام نفسه الإعلامية والتعليمية والتربوية والثقافية . وفي ضوء كل ذلك صار الحوار الاجتماعي والسياسي والحضاري في الواقع الليبي أمرا بعيد المنال، وربما يطول انتظاره لوقت طويل.

إن واقع غريب بهذا الشكل للحوار يعيشه أو يعاني منه الواقع الاجتماعي والتربوي والسياسي الليبي لاشك انه يعكس الأهمية والحاجة الماسة في تناول هذه القضية بشكل علمي موضوعي يساعد على كشف حقيقة وطبيعة ومعالم هذا الوضع البائس والمأزوم، فضلا عن كشف حقيقة المتغيرات والعوامل التي تجعل منه حواراً مفقوداً ومبتوراً ومشوهاً .

استناداً لكل ما سبق عرضه ونقاشه، فإن هذه الورقة البحثية ستتناول موضوع الحوار الاجتماعي الليبي : طبيعته وظروفه، والعوامل المؤثرة فيه، وذلك من خلال الإجابة عن التساؤلات الرئيسة التالية:

- ما علاقة الحوار الاجتماعي بالذهنية البدوية في الواقع الليبي؟
- ما علاقة الحوار بأساليب المجاملة والمسايرة الاجتماعية في الواقع الليبي؟
- ما شكل العلاقة بين الحوار الاجتماعي وسيادة خطاب اللون الواحد في الواقع الليبي؟

المفاهيم الأساسية:

ينطلق البحث العلمي أساسا من ضبط مفهومي، أو من تدقيق في مفهوماته الرئيسة، على أن يتوخى الباحث العلمي صياغة دقيقة وواضحة لمعاني ودلالات ومقاصد مفهوماته التي يستخدمها في بحثه. مع أهمية وضرورة رسم حدود نظرية ومنهجية لمكونات وعناصر مفاهيمه والتعبير عنها باستخدام مفهومات واضحة ودقيقة هي الأخرى . على انه من الضرورة بمكان حرص الباحث على نقل وصياغة معانيه ومقاصده في شكل تعاقد قاموسي بينه، وبين القارئ أو المتابع لبحثه. على أن يحاسب الباحث على التزامه ووفائه باستخدام معانيه ومقاصده التي ارتضاها لمفاهيمه في كل ثنايا وخطوات بحثه أو دراسته العلمية.

وبالنظر لخطورة وأهمية تحديد المفاهيم في البحث العلمي باعتبار المفاهيم بمثابة الدعامات الأساسية والرئيسة للبحث العلمي، فإنه من الأجدر القول ان نجاح البحث العلمي مرهون أساسا بالانطلاق من مفهومات غاية في الوضوح والدقة، فضلا عن أن وضوح ودقة المفهومات المستخدمة في البحث تشكل–التوجيه النظري والمنهجي السليم للمعلومات والبيانات والمعطيات ذات الصلة بقضية أو موضوع البحث، فضلاً عن أهمية هذا التوجيه للباحث في صياغة إجابات وتحليلات و استنتاجات وأحكام منطقية تدور حول سؤال البحث الرئيسي الذي يبحث عن إجابات صادقة وواضحة حوله.

تنطوي هذه الورقة البحثية على مجموعة مفهومات رئيسية تشكل موضوع الورقة الرئيسي في ضوئها ومنها، الأمر الذي يستوجب التعرض لتحديدها ورسم حدود واضحة ودقيقة حول دلالاتها ومعانيها ومكوناتها كمرحلة أو خطوة ضرورية في البحث كما تمت الإشارة في موضع سابق.

ومن بين هذه المفهومات: مفهوم الحوار المفقود : مفهوم الحوار أساسا هو تواصل لفظي وعقلي، وتفاعل وتبادل وجهات نظر بين أطراف تفاعل على مستوى أفراد أو جماعات ويتضمن معنى الحوار التفاوض والنقاش المتبادل المدعم بأدلة وحجج وبراهين يقدمها المتحاورون بحرية تامة بهدف حل مشكلة أو توضيح موقف أو كشف غموض قضية ما أو استهداف الوصول إلى اتفاق، ونقصد بالحوار هنا الحوار الاجتماعي وهو نشاط عقلي لفظي يستهدف تعزيز التفاهم بين مختلف مكونات المجتمع بعيدا عن خطاب التعصب لرأي أو فكرة محددة، والابتعاد عن الخصومة بشكل يتيح إمكانية الوصول إلى مفاهيم مشتركة أو متقاربة.

ومن بين التعريفات التي تصدت لتحديد مفهوم الحوار تعريف الباحث مجدي شرارة (18:2016)حينما أكد على أن الحوار بمثابة النشاط العقلي واللفظي الذي يعكس تبادلاً للآراء والأفكار والمعلومات بين طرفين اثنين أو أكثر من اجل الوصول إلى اتفاق .ومهما يكن من أمر، فإن مشروع الحوار الناجح والسليم يخضع أساسا لعلاقة اجتماعية متكافئة أثناء الحوار، وبشكل تنتفي فيه حالة استئثار احد الطرفين على مجريات الحوار دون الأخر، مع غلبة أوضاع الهدوء والبعد عن الفرقة أو التعصب للرأي.

وإذا ما كان الحوار نقيضاً لفن الكلام، أو نقيضاً للاتصال والتفاهم السوي والسليم، فإن حالة الحوار وفقا لهذا الوضع أو التناقض أقل ما توصف به أنها حالة الحوار المفقود أو المبتور أو المشوه .وما حالة وظروف الحوار في المجتمع الليبي اليوم إلا صورة مناسبة تكشف عن هذا الوضع المشوه للحوار، وربما يمكن القول أن توجيهات الثقافة السائدة في المجتمع الليبي . تبارك وتساير حالة من هذا النمط من الحوار المفقود والمشوه أو المبتور .

وفي سياق الحديث عن الحوار قدم الباحث التونسي منصف وناس تعريفا للحوار بأنه "تهيؤ نفسي وذهني للذهاب إلى الآخر ومحاورته مع القدرة على تقديم تنازلات ضرورية من أجل ضمان العيش المشترك والمصير الجامع دون شعور بأي انتقاص والتخلي عن كبرياء الغلبة وحكم القوة" (وناس، 2018: 195).

أما مفهوم الذهنية البدوية: وهو مفهوم ذو صلة وطيدة بنقاش مسألة الحوار المفقود كمفهوم رئيسي في هذه الورقة .لذلك فإن مفهوم الذهنية البدوية يشكل أهمية كبيرة في فهم وتفسير حقيقة وطبيعة وظروف حالة الحوار في المجتمع الليبي. ومن المناسب بداهة قبل تناول مفهوم الذهنية البدوية بالحديث أن نستعرض عرضا نظرياً محدداً نناقش ونتحاور فيه مع مفهوم البداوة أساسا. البداوة ظاهرة قديمة قدم المجتمعات الإنسانية ترتبط بحياة الصحراء تماماً، وهي ظاهرة اجتماعية تميل أساسا بحكم تركيبها الاجتماعي اتجاه النفور من الدولة، والتملص من الخضوع لها، فضلا عن أن الفرد البدوي تشكل القبيلة لديه أعلى مستويات الفخر والاعتزاز والتعصب.

والبداوة هي نقيض صريح للحضارة ومخالفة لها، وتلعب القيم القبلية فيها المحرك الرئيسي لحياة الأفراد، وقد تصل حالة الارتباط بالقيم البدوية من قبل الإنسان البدوي حد الانصهار والذوبان والتماهي والعصبية .والبداوة قلما تتغير في الغالب، وقلما تختلف باختلاف الزمان والمكان فهي الآن كالأمس، ومند مئات السنين خلت ، وهي كظاهرة أو نظام اجتماعي تتشابه في المناطق المختلفة، وربما أصاب المؤرخ ارنولد توينبي حين وصف

البداوة بأنها:***حضارة مجمدة*** (الوردي.34) ومهما يكن الأمر، فإن البداوة نظام اجتماعي قد تركت من الآثار القدر الكبير في تاريخنا العربي، والتركيب الاجتماعي العربي مند عهود بعيدة (الوردي،80)

أما مفهوم الذهنية البدوية فيقصد به في هذه الورقة، وفي ضوء العرض السابق البداوة العقلية بما في ذلك نمط التفكير البدوي، أو الأنشطة الذهنية التي يوظفها التركيب الاجتماعي البدوي في فهم ما يجري من أحداث وظواهر ووقائع . فالبدونة كنظام أو كذهنية أو عقلية أو نمط تفكير هي ثقافة في الأساس، الأ أنها ثقافة بسيطة، ولا تخضع للتغير بمستوى ذي بال، ومن هنا صارت نظرتها للأمور والأوضاع والظواهر نظرة بسيطة تمتزج بروح العصبية والغلبة ،وانعدام الحوار بمعنى الحوار، وسيطرة قيم الانتصار للقبيلة والقرابة والعشيرة.

ويعرف الباحث التونسي المنصف وناس الذهنية البدوية بأنها "نظام ذهني وثقافي ورمزي وقيمي شديد التأثير في سلوكيات الأفراد فضلا عن أنها نظام من القيم والتمثلات" (وناس، 2014).

ومن بين المفهومات الرئيسة التي تشكل منها موضوع هذه الورقة البحثية، مفهوم المجاملة والمسايرة الاجتماعية : ونقصد به العملية النفسية والاجتماعية التي ترتبط بتفاعل طرفي تفاعل في مجتمع ما، وتأخذ العملية حالة إرضاء للآخر كطرف تفاعل بشكل ظاهري وسطحي وغير حقيقي، وتختفي وراء هذا الإرضاء المزيفّ حالة توتر وكراهية أو عداوة اتجاه الآخر، والمسايرة أو المجاملة عملية اجتماعية تسيطر على اللقاءات الاجتماعية والمناخ الفكري العام للمجتمع .

أما مفهوم الإستغابة، فنقصد به، عملية الغيبة أو الاغتياب اتجاه الآخر أثناء التفاعل الاجتماعي وهي عملية تتغذى على الرياء، وتعكس في المجمل روح عدائية، أو كراهية أو حقد اتجاه الأخر وتستهدف العملية أساساً النيل من سمعة الآخرين ، والاستخفاف بهم ، مع ذكر مساوئهم صدقاً أو كذباً، والإستغابة هي وجه من وجوه المسايرة والمجاملة الاجتماعية .

تشمل هذه الورقة من بين مفهومات أخرى مفهوم العدوانية المكبوتة، والذي نعني به أساسا حالة التوتر والكراهية والأحقاد التي يحملها الفرد اتجاه أخر أو آخرين ويستعاض عنها كحالة مخفية ومكبوتة ومبطنة بسلوك يحمل قدراً من اللطف والمجاملة والمسايرة اتجاه الأخر في الموقف التفاعلي.

ويقصد بمفهوم خطاب اللون الواحد، لغة الكلام أو الرسالة (المعجم الوسيط) أما الخطاب إجرائيا فيتشكل من مجموعة أبعاد ومؤشرات عملية تأخذ الشكل التالي :

- الشعارات والأفكار التي تدور حول غايات وأهداف محددة لصالح السلطة الاستبدادية .
- الصورة الواحدة التي تجملّ أساسا نظام السلطة السائد .
- الإعلانات العقائدية ذات اللون الواحد.
- رمزية قادة السلطة التي يرّوج لها النظام التعليمي والإعلامي والثقافي كرمزية ذات لون واحد تلغي أية رموز أخرى.

- الأفكار والمفاهيم المتواترة الظهور والتي تلغى اية خطابات فكرية أخرى تنشد الاستمرار كفكر أو فلسفة ذات خطاب أو لون واحد.

- الرسالة التربوية والتعليمية التي يروج لها النظام التعليمي والثقافي والإعلامي بهدف إعادة إنتاج فلسفة وايديولوجية وأهداف الطبقة المسيطرة في المجتمع أو السلطة الحاكمة.

ومن الأهمية بمكان، ولصالح موضوع هذه الورقة، نتناول دلالات ومقاصد مفهوم أخر ذو أهمية كبيرة في طرح موضوع الحوار المجتمعي وهذا المفهوم هو: التفاعل الاجتماعي باعتباره يعكس شكلا من أشكال المواجهة الاجتماعية أو التواصل بين الأفراد (غدنز، 2005:743) حيث تتأسس معظم جوانب الحياة الاجتماعية من تفاعلات اجتماعية متبادلة، ويتضمن مفهوم التفاعل مابين ما يتضمن المواقف الرسمية وغير الرسمية التي يقابل فيها الناس بعضهم البعض.

الحوار المفقود والذهنية البدوية:

يؤكد عالم الاجتماعي العربي علي الوردي إنه لا يمكن فهم المجتمع العربي بمختلف أقطاره بغير الرجوع الى الثقافة البدوية والتعمق في دراستها (الوردي، 88) ومن ثم فإن الحديث عن الحوار المفقود في المجتمع العربي، والبحث عن المتغيرات الهامة وراء ذلك لاشك انه نتاج جملة من الظروف النفسية والاجتماعية والثقافية، لذلك تحليل العلاقة بين فقدان المجتمع العربي لحالة الحوار الاجتماعي السليم ينبغي انه تنطلق من الذهنية العربية، و نمط وطبيعة وتأثير هذه الذهنية التي دخلت ولازالت مع نمط التفكير البدوي في علاقة غريبة لم تقف عند حدّ .

الذهنية البدوية كعقلية أو نشاط عقلي هي نتاج .لتأثيرات وتوجيهات الأعراف والعادات والتقاليد والتصورات البدوية التي يتشكل في ضوئها معالم السلوك في المواقف الاجتماعية المختلفة . فضلا عن أن الذهنية البدوية لم تفارق مكونات الشخصية العربية ، حتى وإن كانت هذه الشخصية لا تعيش في صحراء مترامية الإطراف(حميد، 2009) ، وأنه من المفيد لتحليل العلاقة التأثيرية لتوجيهات الذهنية البدوية وشكل الحوار في المجتمع العربي اليوم أن نتبين التقارب الشديد، والتماثل مابين الواقع الريفي والبدوي اللذان يحكمهما معا توجيهات الذهنية البدوية(حميد، 2009).

لقد شكّلت الثقافة البدوية كنظام اجتماعي وذهني وثقافي ورمزي وقيمي في المجتمع الليبي الأداة السياسية والثقافية العنيفة التي ساهمت ولازالت في تعطيل سيرة المجتمع الليبي على المستوى الفردي والاجتماعي، بل أن تأثيرها العميق والحاد قد شمل كل مجالات الحياة ومناشط الوجود الإنساني في هذا المجتمع (وناس، 26:2014) علاوة على أن الذهنية البدوية كنظام ذهني وقيمي قد صار وفقا للباحث التونسي منصف وناس" المفتاح النظري المهم لفهم أجزاء من ديناميكية المجتمع الليبي قديما وراهنا "(وناس،27:2014).

ومن المهم الإشارة إلى أن البداوة أو ذهنية أو عقلية البداوة قد صارت وبكل وضوح بمثابة الهوية والانتماء ونمط الحياة لغالبية الليبيين ريفاً وحضراً.

وقد ساهم هذا التأثير الثقافي والاجتماعي الذي تحمله الذهنية البدوية في الواقع الليبي الراهن في تعطيل مسيرة بناء الدولة بالمعنى الحديث للدولة ، فضلا عن التعطيل شبه التام لمسيرة التحديث والتنمية في هذه البقعة من

الأرض إلى المستوى الذي صارت فيه أحوال وظواهر التعطيل الهيكلي تطول الأخضر واليابس بما في ذلك التشويه الغريب والغير مسبوق لمنظومة القيم السائدة في الثقافة الليبية حتى صار المجتمع الليبي وكأنه بدون منظومة قيم توجه الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية فيه . ومن جانب أخر ساهمت ظواهر التعطيل هذه في غياب الدولة تماماً من الواقع .

ولاشك أن نمط البدونة أو شكل الذهنية البدوية المسيطرة المستبدة هو في الأساس بمثابة البدونة القسرية والمفروضة فرضاً في الواقع الاجتماعي و السياسي والثقافي الليبي .

ومهما يكن من أمر، واستناداً لعرضنا السابق ، فإن التأثيرات السيئة والمنحرفة والغير مسبوقة للذهنية البدوية قد طالت الشخصية الليبية في العمق بعد آن جعلت منها شخصية مشوهة ومغتربة ومأزومة تفتقد تماماً للغة الحوار أو حتى القبول به فضلا عن دخولها في قطيعة مع الاختلاف والتنوع والتعدد كقيم تحديثية تعكس سمة العصر، ناهيك عن قطع الصلة مع الأخر المختلف والمتباين.

إن الأزمة الحادة، والمعضلة العويصة التي يعاني منها الواقع الليبي اليوم وأكثر من أي وقت مضى متمثلة في التعطيل الهيكلي الذي أصاب كيان المجتمع الليبي قد التصق تماماً بواقع ثقافي لدولة لا تنادي بشعار العيش المشترك وقبول الاختلاف ولا بتغليب الحوار لا على المستوى السياسي ولا على المستوى الاجتماعي والثقافي فضلا عن المستوى التربوي والتعليمي والإعلامي وإذ نتحدث عن الذهنية البدوية وعلاقتها بتراجع لغة الحوار الاجتماعي في الواقع الليبي فإنه من المهم التنويه إلى القبيلة الليبية باعتبارها الإفراز الطبيعي لحالة البداوة كنظام اجتماعي وذهني وثقافي. فالمجتمع الليبي أساسا كما هو حال المجتمع العربي لا يزال مجتمعاً قبلياً يتغنى بالقبيلة، وينشغل ذهنه بها، وتوجه تفكيره، وتشكل قراراته ومواقفه. ومن ثم، صارت العقلية القبلية وفقاً للباحثة مديحة فخري محمد في مؤلفها الهام: العقلية العربية في زمن العولمة أداة سيطرة على العقلية العربية ... والعقلية العربية قابلة للذوبان داخل إطار القبيلة حتى إن الإنسان العربي صار غير قادر على الخروج أو التحرر من فكرة القبيلة، فضلا عن أن التعصب القبلي يرسخ حالة الصراع بدلا من الحوار وسلطة الفرد بدلا من ديمقراطية الجماعة(محمد، 2016).

لذلك فإن عقلية بهذا الوضع لاشك أنها تدخل في قطيعة وعداوة مع تقبل النقد، وتتسم بالعاطفية والانفعال في التفكير والسلوك، وسطحية التفكير، والتواكل الفكري، والتوهم المعرفي المزيف، والاستغناء عن الاستشارة ، واحتكار الفكرة والحديث على حساب الآخرين أثناء الحوار، والتعصب للرأي والفكرة ، والدخول في عداوة مع من يخالفه الرأي أو الموقف، واعتبار اختلاف الآخرين معها عداوة لا تغتفر، مع رفض الأخر، وعدم التسامح معه في حالة الاختلاف في الرأي والاعتقاد، والايديولوجية. علاوة على التسليم المطلق بالمسلمات والمألوف، والتعامل مع المخالفة في الرأي والنقاش وكأنه انحرافاً وشذوذاً. ومهما يكن من أمر، فإن واقع الحوار المفقود أو المشوه في الواقع العربي بشكل عام ، والمجتمع الليبي بشكل خاص . وفي ظل توجيهات العقلية أو الذهنية البدوية هو إفراز طبيعي ومشوه لبداوة شكلت تاريخنا العربي وتركيب مجتمعاتنا العربية مند عهود بعيدة(الوردي، 80)

ويمكن القول، أن الإنسان العربي، والليبي تحديداً هو متحضراً في الظاهر، ولكنه بدوياً في الباطن . وهذا الواقع لاشك أنه مهد الطريق تماماً لسيادة وانتشار معالم الشخصية المزدوجة في الواقع الراهن ، تلك الشخصية التي تتماهى مع الفكر والذهنية البدوية والقبلية من جانب، وتدخل من جانب أخرفي علاقة مشوهة وغريبة وهجينة مع

التحديث على حساب الطموح لدخول العصر ومواكبة العيش في عالم حديث وعصري . وفي غياب حوار موضوعي يسهل المرور إلي دولة أو مجتمع الحداثة.

الحوار المفقود والمجاملة والمسايرة الاجتماعية:

تسيطر المجاملة والمسايرة على اللقاءات والمواقف الاجتماعية بل على المناخ الفكري والثقافي في المجتمع الليبي، ولم يخلو الواقع الليبي ، وعلى كل الأصعدة والمستويات من تأثير متغيرات المجاملة والمسايرة الاجتماعية، وصارت هذه المتغيرات سمة من سمات الحوار اليومي الليبي . ومن ثم صار الحوار والتواصل المتبادل والتفاعل الاجتماعي بين الأفراد في المجتمع أسيرا لهذا الوضع ، وسجنا تُسجن فيه الحقيقة والشفافية والصدق والمشاعر الحميمية.

إن المتحدث أثناء التفاعل مع الآخرين يلعب أدوارا ، ويصيغ خطاباً غالبا ما يضع في حسبانه ردود أفعال يتخيلها في المستمعين حوله أثناء موقف التفاعل إلى المستوى الذي تتنوع وتتباين فيه أفكاره وإيماءاته و إيحاءاته وفقا لرد فعل الآخرين، فضلا عن أن ردود أفعال الآخرين لا تعكس في الغالب موقفا موضوعيا لأفكار المتحدث علاوة على أن المتحدث ينشد أو يلتمس في الأساس رضا وإطراء الآخرين في الموقف التفاعلي على حديثه وإيماءاته وأفكاره، وان حالة عدم الرضا أو غياب الإطراء تشكل لديه حالة من حالات الاستخفاف والاستهجان والوصم بالدونية من قبلهم كمتفاعلين .

ترتكز المسايرة أو المجاملة تماماً وبقوة على الرياء الذي يعكس روحاً عدوانية مكبوتة ، أو حالة كراهية كثيرا أو قليلا وتكشف حالة الرياء هذه أثناء الحوار المبتور أو المشوه أساسا حالة غيبة أو استغابة تنال من سمعة الآخرين (شرابي، 1981: 45).

والإستغابة كوسيلة تنفيس عن عدوانية أو كراهية أو أحقاد مكبوتة تنشأ من خلال التنشئة الاجتماعية أساسا، بعد أن يعايش الطفل ممارسة عملية للاستغابة من قبل الوالدين في مواقف مختلفة، وضد أشخاص ربما من الأقرباء أو الجيران، ومن ثم تتشكل – ملكة – الاستغابة لدى الطفل بمجرد أن يدخل في تفاعلات مع الآخرين حوله.

وتتغذى حالة الاستغابة والمجاملة والمسايرة التي يكتسبها الطفل ككائن اجتماعي على أساليب التنشئة الخاطئة والمشوهة التي تكرس حالة القهر وكبت الضغينة والمذلة التي يتعرض لها في داخله إلى مستوى الذي يجعله يتعلم عدم الصراحة والصدق والتعاون مع الآخرين، والميل إلى الرياء والنفاق والمداورة والمراوغة، مع اعتياد خطاب التمويه في تفاعله مع الآخرين في المواقف الاجتماعية، وبشكل يزيد من مستويات الاستغابة والمجاملة والمسايرة لديه في ظل سيادة أساليب تنشئة أسرية قسرية، تربية تلقينية خاطئة – فضلا عن أن غالبية التفاعلات الاجتماعية يعكس إطراف التفاعل فيها حالة مستبطنة من العدوانية والريبة والتوجس تمتزج بتوظيف الاغتياب أو الاستغابة للتنفيس عن عدوانية وتوتر تصاحب الكثير من حالات التفاعل .

يتعلم الطفل فنون الاستغابة والمجاملة والمسايرة من خلال الأسرة إلى المستوى الذي يصبح فيه يدرك تماماً الأدوار المطلوبة منه في هذا الصدد .وذلك لمسايرة الآخرين ليحظى باهتمامهم وعطفهم، واتقانه للمسايرة تبعده تماما عن ممارسة مواقف انتقادية وموضوعية وصادقه من الأخر مادام هذا الأخر يحمل إليه قدراً من التودد

واللطف (نور الدين، 34:2000). وعلى حساب الحوار الذي تتفاعل فيه الآراء وتتلاقح فيه الأفكار ووجهات النظر التي تدفع بالعقول ومكونات الوعي والمجتمع العام إلى مقامات التطور الفكري والثقافي التي تتيح الفرصة أو المجال لصناعة التقدم والنهضة والنهوض .

لذلك، لطالما كانت ولازالت مجاملة الآخرين ومسايرتهم إثناء مواقف التفاعل الاجتماعي المختلفة تشكل أداة أو وسيلة تخضع تماماً للنفاق الاجتماعي بحثاً عن التوافق مع الآخرين والتودد إليهم، فضلا عن إن توجيهات التنشئة الاجتماعية خلال رحلة طويلة من حياة للطفل العربي تطالبه بالحذر والتوجس من الآخرين، وسوء الضن بهم إثناء التفاعل معهم . وربما من الأجدر القول أن المجتمع العام من خلال الثقافة السائدة يقدم للطفل – صورة –المجتمع وكأنه عالم تنافس وصراع وتنازع وتمويه ونفاق يحتاج إلى مواجهة تتوخى الحذر والحيطة ، وهذا وذاك، يثير مسألة أخرى مهمة، وهي أن واقع التفاعل الاجتماعي يختفي فيه أحوال الصدق وتنتشر فيه أحوال التملق والشماتة والسخرية من الأخر، وإبراز عيوبهم إلى المستوى الذي تختفي فيه أيضا – إمكانية إيجاد الحلول الجذرية للخلافات التي تنشأ بين الإخوة والأخوات، وهي في الغالب خلافات حول الإرث واقتسام التركة، .ومهما يكن من أمر فإن خلافات وإشكالات الإفراد بين بعضهم البعض تظل معلقة أو مؤجلة، وتظل أيضا الحلول إن وجدت سطحية ومؤقتة ولفظية، وربما تتلاشى وتختفي إمام أول اختبار(نور الدين، 60:2000). ومن ثم ، فإن حسم العلاقات والتناقضات الاجتماعية بين الأفراد في المواقف التفاعلية تظل دائما أسيرة لافعال اجتماعية في صورة مجاملات ومسايرات واغتيابات تتغذى تماماً على غياب التوافق والانسجام عن مواقف التفاعل، وإن وجدت صورة ما من الانسجام أو التوافق فهي بمثابة حالة سطحية وظاهرية ومؤقتة تختفي وراءها أوضاع حادة من النزاع الباطني المستبطن أو المكبوت وعلى حساب تفاعلات اجتماعية سليمة تخضع لنمط من الحوار الاجتماعي السليم، فضلا عن – الضرر –الذي يصيب مواقف التفاعل بفعل تأثير المجاملات والحذر من الأخر وسوء الظن به، علاوة عن أن الواقع الاجتماعي في أوقات الجد والهزل، ووفقا الباحث الفيومي يخضع للوهم والعاطفة على حساب العقل والحوار المشترك (الفيومي،134:1991).

ويضيف الباحث الفيومي حينما يصف التفاعل الاجتماعي بأنه مطبوعاً بلغة المسايرة والأدب الشكلي بشكل تظل فيه معالجة المشكلات المطروحة أمرا صعب المنال، فضلا عن أن المسايرة الاجتماعية تشكل عوائق خطيرة لطرق العمل، وحل الخلافات أثناء مواجهة الناس بعضهم البعض إلى المستوى الذي تسود فيه المصارحة المكبوتة التي تستمر في الغليان لدى أطراف التفاعل، ويشكل هذا الوضع إجمالا هروباً بواسطة المسايرة من المواجهة المباشرة مع الأخر، و على حساب تسوية أو علاج المشكلات بصورة جذرية مع تفضيل الحلول التي تستند أو تتغذى على التصنع والمجاملة والرياء(الفيومي، 131:1991). وهكذا تظل المسايرة والمجاملة الاجتماعية بمثابة الغطاء الذي يختفي وراءه عدم الثقة في الآخرين، وربما العداء نحوهم. وفي ضوء سيادة وانتشار أحوال شعور الفرد بعدم الاطمئنان خلال تعاملاته مع الآخرين حوله حينما يتعرض وفقا للباحث هشام شرابي إلى الخداع والاستغلال في الموقف التفاعلي (شرابي، 46:1981)، وفي ضوء ذلك أيضا، تأكيد عالم النفس العربي على زيعور على أن المحاباة والمسايرة والاغتياب تؤدي بالفرد أثناء التفاعل إلى عدم احترام مشاعر الآخرين ، وعدم تحمل حريتهم في الاعتقاد والتفكير (نور الدين ، 85:2000) إنه من المناسب القول، أن الحوار الاجتماعي في الواقع العربي يتحول في الغالب إلى صراخ يلغى الأخر تماماً وجوداً ومشاركة، وككيان

مستقل ووجوداً وفكراً وموقفاً على حساب سيادة الحوار الحقيقي الذي يفترض حرية الفكر والتعامل الأفقي مع الآخر، واحترامه، واحترام خصوصيته، وعدم اغتيابه أو ذمه أو تعريته من المحاسن.

خلاصة الأمر، أن الأفعال الاجتماعية تنشد أساسا وفقا لتأثيرات الثقافة الاجتماعية السائدة التطابق مع – نموذج السلوك – الذي حدده المجتمع لأفراده كسلوك أو نموذج مثالي . فالمجتمع هو الذي يصمم السلوك، ويوجه الشعور بحثاً من كل فرد أن يتلاءم ويتكيف مع محيطه الاجتماعي ليتجنب الألم ويحصل على السرور (الطاهر،61:2016).

وطالما أن أفراد المجتمع يمارسون أفعالهم الاجتماعية ، ويتفاعلون مع الآخرين بحثاً والتماساً لدور ينتظره منهم المجتمع اجتماعيا وثقافيا، فضلا عن تطابق أفعالهم مع الصورة أو النموذج الذي يحدده أو يرتضيه المجتمع لهم، فإن مقدرة هؤلاء تبعاً لذلك على التواصل الاجتماعي السليم مع الآخرين صارت مسألة غير ممكنة وغير واردة أساسا وصار في المقابل، تواصلهم مع الآخرين في المواقف التفاعلية بمثابة التواصل السطحي الذي يُقاد ويسترشد بقوة تأثير عادات وتقاليد جامدة، وتصورات ومفاهيم جاهزة، وفي إطار هيمنة وقهر وتسلط مجتمع سلطوي يبارك العقلية الأبوية، والقيم العمودية التي تنظم العلاقات الاجتماعية على أساس هرمي وتبارك وتساير أحوال التفاوت والتفوق والتنافس والأسبقية في الحقوق والواجبات وتتغاضى عن سيادة علاقات القوة والاستغلال والاقتناص (بركات،2000: 638 – 639) .

الحوار المفقود في ظل مفهوم الطاعة:

الحديث عن الواقع الاجتماعي أو تحليله، أو تقييم دينامياته يشترط منهجياً ونظرياً تناوله وتناول جوانبه العديدة في إطار تكاملي نظراً للتعقيد الذي يتصف به الواقع، وبصورة خاصة الفعل الاجتماعي، علاوة على التداخل والتشابك الذي تحمله متغيرات كثيرة ومختلفة في صياغته أو تشكيله لذلك، فإنه من الأهمية بمكان، تناول موضوع الحوار وعلاقته بالمجاملة والمسايرة الاجتماعية في ضوء مفهوم أخر مهم يسلط الضوء على الحوار من جوانب أخرى .وهذا المفهوم هو مفهوم الطاعة .

يشكل مفهوم الطاعة وفقا للباحث العربي فؤاد زكريا في مؤلفه : خطاب الى العقل العربي حالة المرض العضال في الثقافة العربية، إلى المستوى الذي جعل الباحث زكريا يسم مفهوم الطاعة بمفهوم – الفضيلة الصامدة – تلك الفضيلة التي يعتز بها التراث العربي منذ القدم . وربما وفقاً للباحث زكريا تشكّل – الوسام –على صدر كل من يتحلى بها، وربما أيضا تشكل حالة الصلاحية لكل زمان ومكان (زكريا ، 79:2010).

على أنه من المهم القول، أن الطاعة في الثقافة العربية على المستويات : الأسرية، والتعليمية، والثقافية والإعلامية تشكل مؤشراً خطيراً من مؤشرات التخلف والتراجع والاستسلام للتحديات المختلفة، وهي أيضا حالة مرضية غريبة تعكس وبقوة وحدة بنية العيوب والنقائص العربية.

فمن خلال أساليب التنشئة الاجتماعية العربية، وعلى المستويين الأسري والتعليمي تغرس الطاعة غرساً، أو تستزرع استزراعا وبقوة إلى المستوى الذي يصاغ في ضوئه ومن خلاله جانب مهم من التركيبة المعنوية

للمواطن العربي، وتتجسد حالة الطاعة هذه أساسا في علاقات الأبناء والإباء، والعلاقات الزوجية التي تدفع فيها المرأة العربية الثمن وحدها .

وفي هذا الصدد، يضيف عالم الاجتماع العربي سعد الدين إبراهيم، إضافة مهمة لموضوع أو مفهوم الطاعة التي تنطوي عليها الثقافة العربية، حينما يؤكد على أن "مظاهر الطاعة والولاء والامتثال لمرجعية السلطة المستبدة هي في الغالب مظاهر شكلية سطحية، تخفى ورائها أو تحتها مشاعر ومواقف مغايرة" (إبراهيم، 187:2000). فالمواطن العربي تبعاً لتقييم إبراهيم يبدو متماثلا في الظاهر، غير أنه يشكل وضع الاعتراض في الباطن، وإن حالة أو أحوال التناقض أو التنافر هي مواقف تزخر بها السلوكيات والأفعال الاجتماعية في الواقع العربي .

ويضيف نفس الباحث حيث يؤكد على أن قيم الطاعة والامتثال والولاء تغرس في الطفل العربي في نطاق الأسرة "الأبوية "التي تتحدد السلطة فيها على أساس " الذكورة " و "العمر" وفي إطار السلطة المطلقة ، مع ضرورة أن يمتثل الأصغر سناً لطاعة الأكبر سناً، مع عدم محاسبة أو مراقبة هولاء أصحاب السلطة المطلقة (إبراهيم، 184:2000).

ويبدو إجمالا، ووفقاً لسعد الدين إبراهيم أن ظاهرة الطاعة في الثقافة العربية ترتبط بمفهوم أخر يحمل هو الأخر تداعيات سلبية خطيرة يعاني منها الحوار الاجتماعي، والتفاعلات الاجتماعية بشكل عام ، وهذا المفهوم هو مفهوم –التقية – وهو مفهوم ينتشر تدريجياً ومنذ نعومة الأظفار بين كل أفراد المجتمع العربي، ليشكل صورة أخرى، أو وجه أخر من وجوه استبدادية السلطة في المجتمع العربي من الأسرة الأبوية إلى المدرسة إلى الدولة التسلطية (إبراهيم،186:2000).

ومهما يكن من أمر، تظل ادوار التنشئة الاجتماعية والتربوية والسياسية التي تنعكس في ادوار النظام التعليمي العربي التي يترسخ بواسطتها ،ومن خلالها – مفهوم الطاعة – والتقية وفقا لسعد الدين إبراهيم، هذا المفهوم السلطوي الذي لا يتيح – جملة وتفصيلا – ظروف المناقشة المستقلة وتعويد التلميذ العربي على اكتساب مفاهيم –الإذعان – وترديد ما يتم تلقينه، والحفظ وتكرار الحفظ لمعلومات على ظهر قلب على حساب الابتكار والإبداع وصياغة المواقف المستقلة، فضلا عن أن التلميذ العربي، في ظل هذه الظروف التي يتعرض إليها في الواقع التعليمي يتعرض وبشدة إلى العقاب في حالة خروجه من دور الترديد الحرفي للدروس والمعلومات أو أبداء رأيا ناقداً أو مخالفاً.

لا يقف الأمر عند حدود العملية التعليمية، بل أن الأمر يطال ولازال علاقات الفرد العربي في محيط العمل من خلال الاستجابة الآلية أو الميكانيكية للرؤساء بعد أن يتقلد الرؤساء في العمل صفة الحاكم المطلق، أو كبير العائلة، فضلا عن أن الطاعة لقوة مستبدة ومسيطرة تدفع وبقوة المواطن العربي إلى خوض تجربة المجاملة والمسايرة والرياء والاستسلام والخضوع في واقع سياسي عربي اقل ما يقال عنه انه – اللعبة القذرة والمفسدة المطلقة.

الحوار المفقود وخطاب اللون الواحد:

الواقع الاجتماعي الليبي، كما الواقع الاجتماعي العربي هو رهينة للتفكير البدوي، والذهنية القبلية، وفريسة وضحية لتأثيرات ظواهر المجاملة والمسايرة والنفاق والرياء. ومن ثم، فأن الحوار الاجتماعي الليبي هو إفراز طبيعي ومأزوم وبائس لهذا الواقع المأزوم أساساً، وهو واقع فوضوي غريب اقل ما يقال عنه وفقا للباحث مصطفى التير أنه بمثابة فوضى لم يعرفها مجتمع من المجتمعات خلال حقب التاريخ (التير، 2014) . علاوة على أن الواقع الاجتماعي والسياسي الليبي يشكل حالة كراهية وأحقاد وفتن صارخة، وانتشار غريب وغير مسبوق لانفلات حاد في ممارسة الحرية بين أبناء الوطن الواحد بصورة غير منضبطة، وغير واعية، تتماشى مع سيادة خطاب عنف لفظي ومعنوي تجاوز الحد والوصف، ويمتزج مع مفاهيم الشجار والتنازع والصراع والاهانة والتهديد . فضلا عن أن انتشار واقع من الخوف من السلطة المستبدة تجّذر في النفس والعقل والمخيلة الليبية خلال" عقود من القهر والتجهيل المتعمد والممنهج " (التير،201:2014).

وفي ضوء ما سبق نقاشه، فإن الانتشار الواسع لخطاب اللون الواحد في الواقع الليبي كان ولا زال يمثل – العائق –الذي صودرت سببه، ومن خلاله مجالات الإبداع الفكرية والعلمية والفلسفية ، وضعفت وتراجعت في ضوئه – ثقافة الحوار – بعد أن صار الخطاب اللغوي الليبي خطاباً صوتياً ينشد ويلتمس بواسطته المواطن الليبي رفع صوته أكثر من أصوات الآخرين حوله بالتوازي مع انفصال أقواله عن أفعاله

وترسخ واقع الخطاب اللفظي على حساب الواقع العملي (حجي، 34:1998) علاوة على التعصب للرأي الخاص والفكرة الواحدة، وسيادة خطاب اللون الواحد وتهميش الأخر، وتسفيه الرأي المخالف ورفضه. وصار الليبيون يفتقرون لثقافة الرأي والرأي الأخر، والاختلاف والتنوع الفكري، في ظل نمط من التنشئة الاجتماعية يساير ويبارك سماع خطاب اللون الواحد الذي يدخل في قطيعة مع الحوار وانتشار ثقافة الحوار، والديمقراطية كأسلوب حياة ينعكس في أنماط سلوك الإفراد، ويتعارض من جانب آخر مع نظام قيمي وقوالب تفكير تشكل القاعدة والمعيار لكل حوار أو تفاوض أو نقاش بعد أن يُبنى هذا النظام القيمي على أساس احترام الآراء والاختلاف في وجهات النظر وثقافة الحوار والتفاوض (مصباح،67:2012).

لذلك، فان غياب خطاب الحوار، مع سيادة اللون الواحد للخطاب، والافتقار المجتمعي لثقافة الرأي والرأي الآخر، وفي ظل انتشار واسع وغريب للغة التعصب والاستبداد والتسلط والتشنج، لاشك أنه – يعّطل– واقع الحوار من جهة، ويؤجل مشروع الحداثة والتحديث والنهضة والنهوض من جهة أخرى .

وربما من المناسب القول، بل من البديهي الإشارة إلى أن الليبيين لم يعيشوا في مجتمع ديمقراطي بالمعنى الكامل خلال عقود فضلا عن أن السواد الأعظم منهم اليوم ينتمون لجيل تربى في ظل نظام ديكتاتوري لم يجرب غيره (التير، (206:2014) وربما من المناسب أيضا القول أن تغول السلطة، وتسلط النظام السياسي قد ساهم في إلغاء ثقافة الحوار تماماً في الواقع الليبي، وإن هذا التغول الصارخ سيظل يلقي بظلاله وتداعياته الخطيرة لوقت طويل على كل المستويات الاجتماعية والسياسية والتعليمية والإعلامية والفكرية.

ومن جانب أخر سيظل خطاب اللون الواحد في الواقع الليبي يخضع لتأثيرات الماضي والتغني به والحنين إليه في كل موقف أو مناسبة ، فضلا عن التغني بالألفاظ وبالتاريخ والأمجاد الغابرة إلى المستوى الذي يصبح فيه

هذا الخطاب ينمو ويتكاثر كما تتكاثر الخلايا السرطانية تماماً، وبهدى من نوع واحد من الحريات عرف بحرية النفاق والتملق والرياء، وهي حرية منفلتة من عقالها تتغذى أساسا على توجيهات وانحرافات السلطة المستبدة التي تصنع مكونات خطاب اللون الواحد من خلال ربطه بالماضي واعتباره مخزوناً للحلول على حساب الحاضر .على الرغم من أن نسخ الماضي كعمل ثقافي يمحو الحاضر تماماً بلغة المفكر العربي ادونيس في كتابه صدمة الحداثة في ظل علاقة بين ماضي ينافس الحاضر بشدة حتى يبدو الماضي وكأنه الحاضر وفقاً لمحمد عابد الجابري، إلى المستوى الذي تصبح فيه المبالغة في التمسك بالقديم حالة من حالات الاغتراب التي يعيشها المواطن العربي هذا المواطن الذي صار فريسة أو أسيرا لحالة العيش في الحاضر بعقلية الماضي (الجابري،44:1984).

إن مثل هذه الخصائص التي يتفرد ويتميز بها خطاب اللون الواحد في الواقع الاجتماعي والثقافي الليبي، وفي ضوء العلاقة الوطيدة مع الماضي والثقافة التقليدية، ومكونات التراث العربي الذي لا يشجع الفرد على التشكيك في المسائل المهمة، ولا حق مناقشتها أو تعديلها أو إلغائها (التير،64:1992)، لاشك أنها تشكل تماماً العائق الخطير أمام سيادة حوار مفتوح وصائب من سماته تنظيم أسلوب التفاعل، وفسح المجال أمام تعاظم مستويات الرأي المخالف والمتنوع والتفكير الحديث .

لقد اعتمد النظام التعليمي الليبي على التلقين والحفظ في نقل رسالته التعليمية والتربوية في الواقع الليبي وفي كل مراحله التعليمية، وهو دور لا يختلف عن دور الأنظمة التعليمية العربية، لذلك فإن مسائل التلقين والحفظ والاستذكار وفي غياب روح المناقشة والإبداع والتفكير والحوار كمهارات ينبغي ترسيخها وتكريسها في الواقع التعليمي الليبي تظل تشكل – فضاءات للتمويه والاستبداد – مأزومة وبائسة تسوق أساسا لترويج معلومات جامدة ومجردة في مناخ من الخوف والتهديد على حساب الفهم والاستيعاب وحرية الحوار والنقاش خلال العملية التعليمية الأمر الذي يساعد على سيادة وانتشار تفاعلات اجتماعية سليمة في الواقع التعليمي . ومهما يكن من أمر، فإن التعليم الليبي كما هو حال التعليم العربي ينشد ويلتمس أساسا تخليق ذهنية مأزومة وبائسة طموحها الامتثال والطاعة والخضوع والاستسلام فضلا عن أن المؤسسة التعليمية باعتبارها مؤسسة تنشئة ثانية بعد الأسرة يتلقى فيها المتعلم المعرفة بدون أن يثير تسأولاً أو نقاشاً أو حواراً، وهذا المتعلم يُكره على حفظ المعرفة بدون أن يفهم مكونات وأهداف وأهمية هذه المعرفة ، علاوة على عدم تمكينه كمتعلم من فحص أو انتقاء هذه المعرفة التي اكتسبها، ناهيك عن أن المتعلم يمثل دور الطاعة والامتثال دائماً وابداً للمعلم.

يوظف النظام التعليمي إلى جانب النظام الإعلامي الرسمي في ترسيخ صورة وحالة اللون الواحد التي تعكس الفكر الواحد واللغة الواحدة الايديولوجية الواحدة، والقائد الواحد الأوحد دون غيره، وفي ضوء شعارات وأفكار جامدة ومأزومة تحمل في طياتها التهديد والوعيد والتسلط والقهر والاستبداد، فضلا عن مصادرة وتهميش واستبعاد أية نظام أخر للأفكار، مع محاسبته وعقاب من يتابع أو يناقش أفكارا مختلفة أو عقائد أخرى أو ايديولوجيات وفلسفات تعارض هذا الوضع.

وفي ضوء هذا الواقع التعليمي والسياسي والإعلامي – المأزوم والبائس – يظل المتعلم ومند نشأته الأولى ينتقل من تنشئة استبدادية إلى غيرها مع امتثاله وطاعته وولائه لما يتعرض له من تأثير، أو يتلقاه من معارف بدون مشاركة، أو إبداء لرأي مخالف أو فكرة معارضة إلى أن يصطدم وهو بالغاً راشداً تنشئة استبدادية أخرى متمثلة

في أجهزة ومؤسسات الدولة المتسلطة بعد أن يمارس أحوال الولاء والطاعة والامتثال بدون نقاش أو حوار أو مشاركه .وفي هذا الصدد يؤكد عالم الاجتماع العربي سعد الدين إبراهيم على أن "مؤسسة الدولة العربية " بنظمها التعليمية والإعلامية تحاول أن تبث وتعّمق ولاء الفرد فيها للدولة القطرية نفسها، وأحيانا النظام الحاكم أو حتى شخص الحاكم نفسه" (إبراهيم، 31:1988). ويضيف سعد الدين إبراهيم ليؤكد على أن " الطفل العربي ينمو في بيئة عربية متخلفة وعاجزة وفي ظل أنظمة حكم لا تقل تخلفاً وعجزاً. ومن يفلت من الأطفال العرب من كل تداعيات هذا التخلف والعجز، يجد نفسه مواجهاً في عمر مبكر جدا في أن يحارب معركة بقائه بنفسه " (إبراهيم، 32:1988)، غير أن عالم عربي أخر يدعى على زيعور صوّر واقع التعليم العربي مند بدايات التنشئة الأولى للطفل العربي على أن" الأب والعصا هما رمزان للتعلم بالإكراه، أي عن طريق الذاكرة لا بتعزيز النقاش والحوار (زيعور، 34:1977).

ويضيف عالم الاجتماع حليم بركات ليؤكد على أن المجتمع العربي في جملته هو رهينة لسيادة وانتشار قيم اجتماعية تُعرف بالعمودية، وهي قيم تبارك التسلط والتعالي، وتنتظم العلاقات الاجتماعية بموجبها على أساس التفاوت في السلطة والنفوذ والوجاهة والأسبقية والتفاوت على أساس الجنس والعمر (بركات، 1986: 355-356).

استناداً لما تم نقاشه، وطالما أن مشروع المشاركة والحوار الليبي والعربي أيضا يعكس- نموذجا سلطوياً واستبداديا -يعرف وفقا لعالم الاجتماع العربي هشام شرابي بالنموذج البترياركي للتربية الذي يبارك اتجاه القرار في الأسرة والقبيلة العربية من أعلى إلى أسفل، لا السماح للرأي المخالف، وفي ظل نظام تربوي يعتمد على التلقين والحفظ والاستظهار بدلا من النقاش والحوار والتفكير الناقد، فإن مسألة انتشار وسيادة مشروع حوار عقلاني رشيد يتناسب مع مقتضيات العصر في الواقع الليبي يظل حلماً غالياً، لا يلوح في الأفق لا في القريب ولا في البعيد .

الخاتمة:

تناولت هذه الورقة موضوع الحوار المفقود الذي يعاني منه الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي الليبي في ظل- أزمة غير مسبوقة -يعيشها هذا الواقع وعلى كل المستويات الاجتماعية والسياسية والفكرية والاقتصادية والخدمية. والحوار الليبي المفقود أو المبتور أو المشوه لم يكن وليد اليوم، بل هو – محصلة كاملة مكتملة- من الظروف تكونت وتشكلت خلال وقت طويل وتاريخ أطول بفضل متغيرات كثيرة، لعل أهمها تأثيرات عميقة ومتداخلة وقوية لتوجيهات الذهنية البدوية التي لازالت تنتشر بقوة في وعي وعقل الليبيين، وفي واقع اجتماعي هو واقع قبلي أولا وأخيرا، فضلا عن التأثيرات القوية التي تحملها أساليب المجاملة والمسايرة الاجتماعية التي يصطبغ بها واقع الحوار الليبي تماماً بالتوازي مع تأثيرات أخرى لخطاب وصف بخطاب اللون الواحد الذي غُرس غرساً وزرع زرعا بعمدية وقصدية سياسية رسخت- مشروع النظام السياسي السائد في بلورة وقولبة واقع سياسي غريب ومأزوم وموبوء من جهة، وكرس باستبداد وقهر وسلطوية معالم وأمشاج حوار مشوه ومبتور من جهة أخرى.

وما لم تتضافر الجهود وعلى كل المستويات الرسمية والشعبية في ترسيخ ثقافة الحوار المستنير، ونشر ثقافة الحوارات المتعددة والمختلفة، وما لم تلغ تماما ثقافة وعقلية خطاب اللون الواحد الأوحد، وما لم أيضا يعاد تفعيل

قيم الانفتاح على الأخر، واحترام الرأي المخالف، وتعظيم ظروف النقاش والتفاوض والتعايش مع الأخر فإن واقع الحوار الاجتماعي والسياسي الليبي سيظل يتعاظم شروراً وسوءا إلى المستوى الذي يمكن وصفه كحوار بأنه حوار خارج العصر تماماً.

غير أن حالة الحوار الليبي وبهذا الشكل والوضع تظل في حاجة إلى إثارة مسألة أخرى حولها، تفتح الباب أمام أفاق أخرى وبحوث جديدة تتناول –المأساة –التي وصل إليها واقع هذا الحوار، فضلا عن دراسة وبحث ادوار مؤسسات التعليم والتربية والإعلام والثقافة والمجتمع المدني في ما يخص هذا الجانب .

الهوامش والمراجع:

- أنتوني غيدنز، ***علم الاجتماع*** (ترجمة فايز الصياغ)، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005م

- حسن حميد، الذهنية العربية : الثوابت والمتغيرات : مقاربة معرفية ،دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع ،2009م.

- حليم بركات ، المجتمع العربي في القرن العشرين: بحث في تغير الأحوال والعلاقات ،بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية،2000 م.

- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر:بحث استطلاعي اجتماعي، بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية،1986 م .

- زايد عبد الله مصباح،"إشكالية بناء الدولة الديمقراطية في ليبيا:"القيم واتخاد القرار،المستقبل العربي،العدد–403/ايلول/سبتمبر ،بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية ،2012،ص.85–67.

- سعد الدين إبراهيم وآخرون، ***المجتمع والدولة في الوطن العربي***،بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، 1988م

- سعد الدين إبراهيم، الخروج من زقاق التاريخ دروس الفتنة الكبرى في الخليج ،المجلد الأول:القومية العربية(2) ،القاهرة:دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع عبده غريب،2000م .

- طارق حجي،نقد العقل العربي:من عيوب تفكيرنا المعاصر،القاهرة:دار المعارف،1998م.

- عبد الجليل الطاهر ، أصنام المجتمع : بحث في التحيز والتعصب والنفاق الاجتماعي ،بيروت:شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،2016م.

- علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي :محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث ، بغداد : بدون سنة نشر.

- فؤاد زكريا ،خطاب العقل العربي ،القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ،2010م.

- مجدي عبد الله شرارة، الحوار الاجتماعي كأداة لتعزيز التنمية الاقتصادية والاجتماعية، القاهرة مؤسسة فريد ريش ايرت مكتب مصر،2016م.

- محمد إبراهيم الفيومي تأملات في أزمة العقل العربي ، القاهرة: دار الفكر العربي ،1991م.

- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، بيروت:دار الطليعة،1984م.

- محمد عباس نور الدين، التمويه في المجتمع العربي السلطوي : قراءة نفسية اجتماعية للعلاقة بالذات والأخر،الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي،2000م.

- مديحة فخري محمود محمد، العقلية العربية في زمن العولمة : مشكلات وقضايا ،عمان:دار دجلة للنشر والتوزيع ،2016م.

- مصطفى عمر التير، صراع الخيمة والقصر: رؤية نقدية للمشروع الحداثي الليبي ،بيروت:منتدى المعارف،2014م.

- مصطفى عمر التير، مسيرة تحديث المجتمع الليبي:مواءمة بين القديم والجديد، بيروت:معهد الانماء العربي،1992م.

- المنصف وناس، ***ليبيا التي رأيت، ليبيا التي أرى :محنة بلد***، تونس – اريانة :الدار المتوسطية للنشر. 2018م

- المنصف وناس،الشخصية الليبية : ثالوث القبيلة والغنيمة والغلبة، اريانة/تونس:الدار المتوسطية للنشر،2014م.

- هشام شرابي، مقدمات لدراسة المجتمع العربي ،بيروت : الأهلية للنشر والتوزيع ،1981م.